İ.Ü. İlahiyat Fakültesi Dergisi

Bahar 2015/6(1) 129-166

لفظا الرَّدْمِ والسَّدِّ في القرآنِ والحديثِ، فقهُ دلالتِهما وسياقُ استعمالِهما

Khalil AYOUB[*]

ملخّص: تتناولُ هذه الدّراسةُ بالتّحقيقِ والتّدقيق موضوعَ توظيفِ القرآن والحديث لفظيّ الرّدمِ والسّدّ، وما وراءَ هذا التّوظيفِ من أسرارٍ ونكات، وذلك بالسّؤال عمّا بين اللّفظين من أوجه التقاءٍ وافتراقٍ في الدِّلالة وفي التّعبير.

وقد مهّدتُ للدّراسة بتوطئةٍ تكلّمتُ فيها على التّرادف لغةً واصطلاحًا؛ وذلك لِمَا بين الموضوع المدروس وقضيةِ التّرادف من اتصالٍ وثيقٍ وحبلٍ غليظٍ؛ إذ كلا اللّفظين الرّدمِ والسّدِّ يدلّ على المعنى نفسه، وولجت بعد ذلك إلى قلبِ الموضوع، أستقري مواضعَ ورودِ اللّفظين في كتابِ الله والحديثِ النّبويّ، ثمّ استقريتُ ما قالتْه كتبُ اللّغةِ والتّفسير وشروحِ الحديث؛ وذلك لفحصِ قولها والحكمِ عليه، وبعدَ أن تمّ لي تحقيقِ العلاقةِ بين هذين اللّفظين وتمحيصِها جعلتُ أنظرُ بمنظار التّحليل البيانيّ في استعمال القرآن والحديث لهما مُلاحِظًا سِياقَهما ولِحَاقَهما والغرضَ المرادَ منهما، وأنهيتُ كلّ ذلك بخاتمةٍ أودعتُها خلاصةَ ما انتهيتُ إليه من نتائجَ وكشوفٍ.

الكلمات المفتاحية:الردم، السد، فقه، دلالة، السياق، الترادف

Abstract: - *Both Verbalism (Alradm) The Dam And (Alsad) Barrier In The Quran And The Hadith And Jurisprudence Significance The Context Of Their Use* - This study deals with the subject of the investigation and examination the employment of the Koran and Hadith verbalism , (Alsad) the barrier and (Alradm) the dam and what is behind this recruitment of secrets , and then asking what the aspects of convergence and divergence in significance in the expression

It has paved the way for the study featuring now a prologue I spoke with the tandem language and idiomatically; That is because of the subject studied and the issue of synonyms of close contact and rope thick; they both (Alsad) the barrier and (Alradm) the dam indicates the same meaning, and go then to the heart of the matter, generalize Occurrences in the Book of Allah and the Hadith , then

[*] Yrd. Doç. Dr., İnönü Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Arap Dili ve Belagati Anabilim Dalı Öğretim Üyesi, email: khalilayoub1976@gmail.com

I settled what she wrote the language and interpretation and explanations Hadith ; and to examine saying and sentence him, and after it was me realize the relationship between the two words and scrutinized then analysis in the use of the Koran and Hadith, and I finished all of that conclusion deposited summary what I ended up findings and statements.

Key Words: Dam, barrier, jurisprudence, significtion, context, synonymy

أوّلًا: توطئة:

شغلتْ قضيةُ التّرادف أو الفروق الدّلاليّة بين الألفاظ في اللغة أهلَ العلم قديمًا وحديثًا، واختلفوا في ذلك الموضوع على رأيين: فمن قائلٍ بوجود هذه الفروق، ومن نافٍ لذلك الوجود[1]، وكتبوا في ذلك عشرات الكتب والرّسائل والبحوث عدا ما تفرّق في كتب التّفسير وغيرِها من كلامٍ على ما بين الألفاظ من فروقٍ.

وليس من غايتي في هذه الدّراسة أن أعرِض لذلك الخلاف وأدلّتِه، وما كتب حولَ موضوعه قديمًا وحديثًا؛ إذ ذلك أُشْبِعَ بحثًا، وقُتِل تمحيصًا، وإنّما الذي أقصد إليه النّظرُ في استعمال القرآن والحديث لفظين يتصلان بذلك الموضوع اتّصالًا شديدًا، وهذان اللّفظان هما: الرّدم والسّدّ.

والسُّؤال الذي سأتصدّى له في هذه الدِّراسة، وأعمل على الإجابة عنه هو: أثمّة فرقٌ بين لفظي الرَّدم والسَّدِّ في استعمال القرآن والحديث أم أنّه ما من فرقٍ؟ وإذا كان ثمّةَ فرقٌ فما يمكنُ أن يكون؟

ولكن يحسن قبل أن أدلف إلى موضوع السُّؤال أن أوطِّئ بتوطئةٍ أعرِّف فيه بالتّرادف لغةً واصطلاحًا.

---

[1] - انظر كتاب التّرادف في القرآن الكريم بين النّظرية والتّطبيق، محمّد نور الدّين المنجّد، ص36-78، وانظر كذلك كتاب دِلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليّين، الدّكتور محمود توفيق سعد، ص537-562.

ثانيًا- التّرادف لغةً واصطلاحًا:

1- التّرادف لغةً:

التّرادف لغةً: ((مَا تَبِعَ الشيءَ. وَكُلُّ شَيْءٍ تَبِع شَيْئًا فَهُوَ رِدْفُه، وَإِذَا تَتابع شَيْءٌ خَلْفَ شَيْءٍ فَهُوَ التَّرادُفُ، وَالْجَمْعُ الرُّدافَى... وَيُقَالُ: جَاءَ الْقَوْمُ رُدَافَى أَي: بَعْضُهُمْ يَتْبَعُ بَعْضًا...والتَّرَادُفُ: التَّتَابُعُ... ورَدِفَ الرجلَ وأَرْدَفَه: رَكِبَ خَلْفَه، وارْتَدَفَه خَلْفَه عَلَى الدَّابَّةِ.))[2]

2- التّرادف اصطلاحًا:

التّرادف في الاصطلاح: ((ما كان معناه واحدًا وأسماؤه كثيرةً.))[3] فمن ذلك[4]: المطر والغيث[5]، والزّوج والمرأة[6]، والقذف والرّمي[7]، وغيرُ ذلك. وإذا أنعمنا النّظر فيما سبق من كلامٍ نجد أنّ المعنى الاصطلاحي للتّرادف مجازٌ من المعنى اللغوي؛ فالكلمات في المعنى الاصطلاحي يتتابعن على المعنى الواحد كما يتتابع القوم إذا أتَوا رُدَافَى،

---

[2]- لسان العرب، ج3، ص1625، مادة (ردف)

[3]- التّعريفات، الجرجاني، ص199.

[4]- وهذه الألفاظ التي أسوقها كأمثلةٍ على التّرادف لا ترادفَ بينها على التّحقيق؛ إذ لكلّ واحدٍ منها معنى يميّزه من أخيه، ولكنّ القائلين بالتّرادف لا يرون فرقًا بين هذه الألفاظ؛ ولذا سأحيل على بعض الكتب والبحوث التي عرضتْ لِمَا بينها من فروق.

[5]- انظر المطر والغيث في القرآن والحديث، دراسةٌ بلاغيّة أسلوبيّة، الدّكتور خليل محمّد أيّوب، مجلّة كلّيّة الشّريعة بجامعة عثمان غازي، العدد الثّاني، سنة 2015.

[6]- انظر الإعجاز البيانيّ للقرآن، الدّكتورة عائشة عبد الرّحمن، ص229- 231. وانظر معجم الفروق الدّلالية في القرآن، الدكتور محمّد داود، ص278- 280.

[7]- انظر من مظاهر الافتراق الأسلوبيّ بين القرآن والحديث، مستوى الألفاظ أنموذجًا، الدّكتور خليل محمّد أيّوب، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، مج87 ، ج3، ص 783- 789. سنة 2014م.

والكلمات يركبنَ المعنى كما يركبُ الواحد خلْفَ الآخر ((كأنّ المعنى مركوبٌ واللفظين راكبان عليه، كالليث والأسد.))[8]

ثالثًا- الرّدم والسّدّ في القرآن الكريم والحديث النّبويّ:

ورد في القرآن الكريم لفظا الرّدم والسّدِّ في سورة الكهف، في قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا. قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ الكهف95،94. وورد لفظ السّد في سورة يس: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يس9.

وفي الحديث النّبويّ ورد لفظا الرَّدم والسَّدِّ في ثلاثة أحاديثَ، ورد اللّفظ الأوّل في حديثين، أوّلُهما: عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ. وَعَقَدَ وُهَيْبٌ بِيَدِهِ تِسْعِينَ.))[9] وثانيهما: عن زَيْنَبَ رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ. وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ.))[10]

وورد اللّفظ الثّاني في حديثٍ واحدٍ، فعن أبي هريرةَ، أنّ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ

---

[8]- التّعريفات، الجرجاني، ص199.

[9]- البخاري، 3169، مسلم،2881.

[10]- البخاري،3168، مسلم،2880.

الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا. فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ، وَأَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَهُمْ إِلَى النَّاسِ حَفَرُوا حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا، فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَسْتَثْنِي، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ، فَيَحْفِرُونَهُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيُنَشِّفُونَ الْمِيَاهَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ وَعَلَيْهَا كَهَيْئَةِ الدَّمِ، فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ، وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ. فَيَبْعَثُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ، فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ وَدِمَائِهِمْ.))[11]

وواضحٌ أنَّ القرآن الكريم استعمل لفظ السّدّ في **ثلاثة معانٍ** تدور حول معنى الحجز بين الشّيئين:

الأوّل: الجبلان، وهو المراد من السّدّين في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ...﴾ يقول الطّبري: ((والسَّد والسُّد جميعًا: الحاجز بين الشيئين، وهما ها هنا - فيما ذُكِر- جبلان سُدَّ ما بينهما، فردمَ ذو القرنين حاجزًا بين يأجوجَ ومأجوجَ، ومن وراءَهم، ليقطعَ مادَّ غوائلِهم وعَيْثِهم عنهم.))[12]

الثّاني: سدُّ ذي القرنين.

---

[11] -مسند أحمد،10632، التّرمذي، 3153

[12] - جامع البيان، الطّبري، ج15، ص386.

الثّالث: الحاجزُ يُضْرَبُ أمام العين فلا ترى بسببه شيئًا، وقد جاء به القرآن للتّمثيل لِمن عَمِيَ عن الحقّ، يقول الطَّبري: ((وعنى...أنّه زيَّنَ لهم سوءُ أعمالهم فهم يَعْمَهُونَ، ولا يبصِرون رُشْدًا، ولا يَتَبَّهون حقًّا.))[13]

وأمّا الرّدم في القرآن فلم يستعمل إلّا في الدّلالة على سدّ ذي القرنين، وهي الدّلالة التي دار حولها لفظا الرّدم والسّدّ في الأحاديث النّبويّة.

وكلُّ ما سبق يعني أنّ خمسة مواضعَ من سبعةٍ في القرآن والحديث جاء فيها الرّدمُ والسّدُّ بمعنى ردْم ذي القرنين. وذلك حالٌ يدفع الباحث دفعًا إلى القول بالتّرادف، ولكن هل الأمر كذلك؟ وهل لنا أن نستعمل لفظ الرّدم بدلًا من السّدّ في آية يس؟ أو أن نستعمل الرّدم مثنى بدلًا من السّدّين في آية الكهف؟ وحتّى نجيب عن هذه الأسئلة، ونحقّق فيما بين اللفظين من علاقةٍ يحسن بنا ابتداءً أن نستعرض **أقوالَ علماءِ اللغة والتّفسير وشُرَّاح الأحاديث** في هذين اللّفظينِ:

1- أقوالُ علماءِ اللغةِ:

إذا تتبّعنا أقوالَ علماءِ اللغة في الكلام على لفظي الرّدم والسّد وجدناها تذهب ثلاثة مذاهبَ: فهي إمّا ترادف بينَ اللّفظين، وإمّا ترجّح التّرادفَ، وإمّا تعرضُ فرقًا، لكنّها لا تقطع بوجوده.

والذين قالوا بالتّرادف كانوا أكثر عددًا، فإلى ذلك ذهب الخليلُ بْنُ أحمد[14] وابنُ دريد[15] والأزهري[16] والصاحبُ بْنُ عبّادٍ[17]والجوهري[18] وابن فارسٍ[19] والرّازي[20]، يقول الخليلُ

---

[13] - جامع البيان، الطّبري، ج19،ص405.

[14]- العين، الخليل، ج8، ص36.

[15]- جمهرة اللغة، ابن دريد، ج2، ص639.

[16]- تهذيب اللغة، الأزهري، ج14، ص117.

رحمه الله: ((رَدَمتُ الثُّلْمةَ والبابَ أردِمُ رَدْمًا أي: سَدَدْتُه، والاسم الرَّدْم، وجمعُه رُدُوم، وثوبٌ مُرَدَّم ومُلَدَّم إذا رقِّع، وقال عنترةُ:

هل غادَرَ الشُّعَراءُ من مُتَرَدَّمِ

أي: مُرَقَّعٌ مُستَصْلَحٌ. والرَّدْمُ: سَدُّ ما بيننا وبينَ يأجوجَ ومَأْجُوجَ...))[21] ورجّح ابنُ سيده القولَ بالتّرادف؛ إذ ضعّف القولَ بأنّ الرّدم أكثرُ من السّد وأمنعُ، مستعمِلًا لذلك فعلَ القول مبنيًّا للمجهول، يقول رحمه الله: ((رَدَمَ البَابَ والثُّلْمَةَ ونَحْوَهُما يَرْدِمُهما رَدْمًا: سَدَّهُ. وقِيلَ: الرَّدْمُ أكثُر من السّدّ؛ لأنّ الرَّدْمَ: ما جُعِلَ بعضُه على بَعْضٍ، والاسمُ الرَّدْمُ، وجمعُه رُدُومٌ. والرَّدْمُ: السّدّ الذي بَيْنَنا وبَيْنَ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ...))[22] وكرّر ابن منظور هذا الذي ذكره ابن سيده في اللِّسان بنصّه.[23]

وعرض الفيروزآبادي في القاموس ثلاثةَ معانٍ للرّدم عطفَ بعضها على بعضٍ بحرف العطف أو الدّالّ على التخيّير، قال رحمه الله: ((رَدَمَ البابَ والثُّلْمَةَ يَرْدِمُهُ سَدَّهُ كُلَّهُ، أو ثُلُثَه، أو هو أكثَرُ من السّدّ...))[24] فدلّ بهذا الحرف على عدم ترجُّح معنى على معنى أو القطعِ

---

[17]- المحيط في اللغة، الصّاحب بن عبّاد، ج9، ص304.

[18]- الصّحاح، الجوهري، ج5، ص1930.

[19]- مقاييس اللغة، ابن فارس، ج2، ص504.

[20]- مختار الصحاح، أبو بكر الرازي، ص267.

[21]- العين، الخليل بن أحمد، ج8، ص36.

[22]- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ج9، ص326.

[23]- انظر لسان العرب، ابن منظور، ج3، ص1627، 1628. مادّة (ردم).

[24]- القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص1112. مادّة (ردم)

لمعنى دون آخر، وتابع القاموسَ على ذلك المرتضى الزّبيدي في تاج العروس.[25] ولكن يُلاحَظ على صنيع القاموس ومتابعِه تفرّدُهما من بين سائر المعاجم بذكر كلمة (الثّلث)، وهو قول لم يذكُرا له شاهدًا، وينقضه معنى الإغلاق المُطْبِقِ الذي تدلّ عليه لفظة الرّدم.

2- أقوال المفسّرين وشرّاح الحديث:

فإذا انتقلنا إلى كتب التّفسير التي عرضت للكلام على لفظي الرّدم والسّدّ وجدناها تذهب في ذلك الأمر **مذهبين**:

أوّلهما: أنّ الرّدم أمكنُ من السّد وأمنعُ، يقول الطّبري في تفسير قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾: ((أجعل بينكم وبين يأجوجَ ومأجوجَ رَدْمًا. والرّدْم: حاجز الحائط والسّدّ، إلّا أنّه أمنعُ منه وأشدُّ، يقال منه: قد رَدَمَ فلانٌ موضع كذا يَردِمه رَدْمًا ورُدَاما، ويقال أيضًا: رَدَّم ثوبَه يردمه، وهو ثوبٌ مُرَدّم: إذا كان كثير الرّقَاع...))26 واحتجّ الطّبري لهذا القول بما أخرجه محمّد بن سعد عن ابن عباس رضيَ الله تعالى عنهما أنّه قال: ((هو كأشدِّ الحجاب.))[27]

وقال بمثل هذا القول الزّجاج، إذ قال رحمه الله: ((والرّدمُ في اللغة أكثرُ مِنَ السّدِّ، لأنَّ الردمَ ما جُعِلَ بعضُه على بعْضٍ. يقال: ثوبٌ مُرَدَّمٌ، إذا كان قد رُقِعَ رُقعة فوق رُقعَة.))[28] وتابع الطّبريَّ والزجّاجَ على هذا القولِ الزّمخشريُّ[29] وابنُ عطيّة[30] والرّازي[31] والبيضاوي[32] وبرهانُ الدّين البقاعي[33] والألوسي[34].

---

[25]- انظر تاج العروس، الزبيدي، ج32، ص242. مادّة(ردم)

[26]- جامع البيان، الطّبري، ج15، ص403، 404.

[27]- المصدر السابق، ج15، ص404.

[28]- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزّجّاج، ج3، ص311.

[29]- انظر الكشّاف، الزّمخشري، ج2، ص747.

[30]- انظر المحرر الوجيز، ابن عطيّة، ج3، ص542.

[31]- انظر مفاتيح الغيب، الرّازي، ج21، ص172.

[32]- انظر أنوار التّنزيل، البيضاوي، ج3، ص293.

ووَفْقَ هذا التّفريق الذي قال به كلّ أولئك النّفرِ الكريمِ يكون ذو القرنين قد وعدَ القومَ ((بالإسعاف بمرامهم فوقَ ما يرجونه، وهو اللّائقُ بشأن الملوك.))[35]

ثانيًا: تضعيف القول الأوّل بقولهم: وقيل. والميلُ إلى القول بأنّهما بمعنى واحد كما عند القرطبي، يقول رحمه الله: ((وقوله تعالى: ﴿عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي: ردْمًا. والرّدمُ: ما جُعِل بعضُه على بعضٍ حتّى يتّصلَ. وثوبٌ مُرَدَّم أي مرَقَّعٌ. قاله الهروي. يقال: رَدَمْتُ الثُّلْمَة أردِمُها رَدْمًا، أي سدّدتُها. والرّدم ... هو السّدّ. وقيل: الرّدم أبلغ من السّدّ؛ إذ السّدّ كلّ ما يُسَدّ به، والرّدمُ وضعُ الشّيء على الشّيء من حجارةٍ أو ترابٍ أو نحوِه حتّى يقوم من ذلك حجابٌ منيعٌ، ومنه ردّمَ ثوبَه إذا رقّعَه برِقَاعٍ متكاثفةٍ بعضُها فوق بعضٍ.))[36] وبمثل ذلك قال صاحب البحر المحيط: ((السّدّ: الحاجزُ والحائل بين الشيئين. ويقال بالضّم وبالفتح. الرّدم: السّدّ. وقيل: الرّدم أكبر من السّدّ لأنّ الرّدم ما جُعِلَ بعضُه على بعضٍ...))[37]

وأمّا كتب شروح الحديث التي وقفت عليها فلم تعرض للفرق بين لفظي الرّدم والسّدّ، واكتفت بالمرادفة بينهما نحو قول العينيّ: ((من رَدْم يأجوجَ ومأجوجَ. الرّدمُ: السّدّ الذي بيننا وبينهم.))[38] أو كقول الطّيبي: ((ردَمْت الثُّلمَةَ رَدْمًا إذا سددتها. والاسم والمصدر فيه سواءٌ.))[39]

ومن العرضِ السّابق لأقوال اللّغويين والمفسرين وشرّاح الأحاديثِ يتّضح لنا **أمران**:

---

[33]- انظر نظم الدّرر، البقاعي، ج12، ص136.

[34]- انظر روح المعاني، الألوسي، ج16، ص40.

[35]- المصدر السابق، ج16، ص40.

[36]- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج11، ص59.

[37]- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج7، ص218.

[38] - عمدة القاري، العيني، ج24، ص 181، وانظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ج1، ص131. تحفة الأحوذي، المباركفوري، ج6، ص 352

[39] - الكاشف عن حقائق السّنن، الطّيبي، ج11، ص3380

1- اختلافُ العلماء في النّظر إلى موضوع التّرادف وعدمِه بين لفظي الرّدم والسّدّ؛ فعُظْم علماء اللغة لم يفرّقوا بين اللفظين، ومن فرّق منهم إمّا رجّح التّرادف، وإمّا لم يقطع بوجوده، وأمّا شرّاح الحديث الذين وقفت على شروحهم فذهبوا إلى المرادفة بين اللّفظين، وذهب جُلُّ المفسّرين إلى القول بوجود فرقٍ بين اللّفظين، وقلّة ضعّفت وجود ذلك الفرق.

2- إنّ الذين قالوا بالتّرادف اعتمدوا في قولهم على تناوب اللّفظين في الدِّلالة على مسمّى واحدٍ، وأمّا الذين قالوا بعدم التّرادف فاستنبطوا الفرق من طبيعة الرّدم وحقيقته.

ولا شكَّ أنّ اختلافَ العلماء على ذلك النّحو يجعلُ مسألةَ التّرادف وعدمه بين لفظي الرّدم والسّدّ معلّقةً، ويعيدُ المسألة جَذَعَةً، ويثيرُ السؤالَ الذي طرحْناه من قبلُ، ولكنْ بصيغةٍ أخرى، وهي: هل القول بالتّرادف هو الصّوابُ أو عدمُه؟ أو ما الرّاجحُ من القولين؟ وما المرجوح؟ وإذا كان الصّواب مع من قال بعدم التّرادف فهل ما ذكروه من فرقٍ صحيحٌ ودقيقٌ؟

وحتّى نجيب عن هذه الأسئلة إجابةً وافيةً، ونظفرَ بما تقنع به النّفس يجب أن نفحص أوّلًا ذلك الفرق الذي ذكروه.

والذي يظهر لي من بعد التّدقيق في توظيف القرآن الكريم لهذين اللّفظين أنّ ما ذهب إليه القائلون من أنّ الرّدم أحكمُ من السّدّ وأمنعُ، متكِّئين في ذلك على أنّ الرّدم ما جُعِلَ بعضُه فوق بعضٍ، يردُّه **أمران اثنانِ**:

أولًا- استعمالُ القرآن لفظَ السّدّ في آية يس: في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ والسّدُّ في هذه الآية يدلّ على الغاية في قوّة الإغلاق والمنتهى في الإحكام، ولو لم يكن كذلك لمَا مثَّل به القرآن للدِّلالة على المراد من آية يس، ولآثرَ لفظَ الرّدم على السّدّ؛ إذ ذلك مقتضى البلاغة والفصاحة والبراعة.

يقول الزَّمخشري معلّقًا على التّمثيل في آية يس: ((مثّل تصميمهم على الكفر، وأنّه لا سبيلَ إلى ارتوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المُقْمَحِين: في أنّهم لا يلتفتون إلى الحقّ، ولا يَعْطِفُون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدّين لا

يبصرون ما قدَّامهم، ولا ما خلفَهم في أن لا تأمّل لهم، ولا تبصُّرَ، وأنّهم متعامون عن النّظر في آيات الله.))[40]

ثانيًا- استعمالُ القرآن لفظ السّدّين مثنى السَّدِّ في آية الكهف مرادًا به الجبلين، والجبالُ حواجزُ ربّانيّةٌ طبيعيّةٌ هي المنتهى في الحجز والفصل والإغلاق.

ولكن هل عدمُ صحّة هذا الفرق معناه التّرادفُ بين لفظي الرّدم والسّدّ؟ والجوابُ عن ذلك: لا؛ فليس التّرادف بلازمٍ عن عدم صحّة الفرق، فقد يكون ثمّة فرقٌ بين اللّفظين، ولكنّه ثاوٍ في مطاوي الحروف، وبين معاني الكلمات ينتظر من يكشف عنه، ويهدي إليه.

وإذا كان الأمرُ على هذا النّحو فأيُّ فرقٍ يمكن أن يُكشف عنه، ويُهتدى إليه؟ والذي يظهر لي من بعد التّدقيق في معاني لفظي الرّدم والسّدّ أنّهما يلتقيان في معنى، ويفترقان في اثنين: يلتقيان في معنى الإغلاق وقوّته من غير تفاوتٍ ولا تفاضلٍ، يقرّر ذلك استعمال القرآن لفظِ السّدّ دالًّا على الغايةِ في الحجز، والمنتهى في الإغلاق في آيتي الكهف ويس، ويفترقان في **معنيين اثنين**:

أوّلًا: إنّ السّدّ أعمُّ من الرّدم، فلا يُطلق لفظُ الرّدم إلّا على ما جُعل بعضُه فوق بعضٍ، وأمّا السّدّ فيُطلقُ على الرّدم، وعلى ما ليس بردمٍ، وذلك حين يكون السّدُّ طبقةً واحدةً، وليس طبقاتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ. وبذلك يمكننا أن نقول: إنَّ كلَّ ردمٍ سدٌّ، وليس كلُّ سدٍّ ردمًا.

ثانيا: إنَّ لفظ السّدّ حين يُطلقُ ينصرفُ الذّهن إلى معنى إغلاق المفتوح إغلاقا تامًّا كاملًا، لكنْ من غيرِ التّفكيرِ في الطّريق الموصلة إلى ذلك؛ إذ السّدّ ((إغلاق الخَلَلِ ورَدْمُ الثَّلْمِ. سَدَّه يَسُدُّه سَدًّا، فانسدّ واستدّ.))[41] وأمّا الرّدمُ فينصرفُ الذهنُ إلى معنى إحكام الإغلاق: كيف يكونُ؟ وممَّ يكونُ؟ لأنّ الرّدم كما سبقَ ((ما جُعِلَ بعضُه على بعْضٍ.))[42]

---

[40]- الكشّاف، ج4، ص5.

[41]- العين، ج8، ص236.

[42]- معاني القرآن وإعرابه، ج3، ص311، لسان العرب،ج12، ص236.

فإذا رجعنا إلى التّوظيف القرآني والنّبوي لهذين اللفظين في قصّة يأجوجَ ومأجوجَ ننظر في سياقهما، ومع من استعملا – وقد تمّ لنا تحقيق القول فيما بينهما من فروقٍ- فإنّا نرى تواطؤًا واتفاقًا يقوّي ما كشفت عنه الدّراسة، يهدي إلى ذلك أنّ القرآن الكريم جاء مع ذي القرنين في آيتي الكهف بلفظ الرّدم لا السّدّ، وأنّه أعقبَ آية لفظ الرّدم بمعانٍ تدور حول طريقة البناء ومكوناته: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ فذكر ما بُنيَ منه السّدّ: (زُبَرُ الحديد، النحاسُ المذابُ)، وذكر طريقة البناء: (المساواةُ بين الصّدفين، صهرُ الحديد بالنّار.) ولا تفسير لهذا التّوظيف والتّعقيب إلا أنَّ ذا القرنين كان مهمومًا في إحكام الإغلاق، ومستغرِقًا في الطّريقة التي تمَكّن من ذلك، فانتهى إلى أنَّ الرّدم سيكون على طبقاتٍ، ويتشكّل من كذا وكذا، فكان من المناسب لكلّ ذلك إيثارُ الرّدم على السّدِّ.

وأمّا الذين سألوا ذا القرنين أن يمنع عنهم أذى يأجوجَ ومأجوجَ فعدل معهم القرآنُ عن لفظ الرّدم إلى لفظ السّدّ؛ وذلك أنّ فكرة الطّبقات، وكيف يكون البنيان؟ وممّ يكون؟ لم تكن تعنيهم في شيءٍ، ولا خطرت على بالهم، وإنّما الذي كان يعنيهم، وكانوا به مهتمّين أن يغلقوا الباب الذي يَلِجُ منه شرُّ يأجوجّ ومأجوج إغلاقًا تامًّا، فناسب هذه الحال أن يُعبّر بلفظ السّدّ، لا بلفظ الرّدم.

وهذا التّعليل الدلاليّ الذي فسّرنا به الاختلاف اللّفظيّ في آيتي الكهف يصلح كلّ الصّلاح لتفسير إيثار آية يس لفظَ السّدّ على لفظ الرّدم؛ وذلك أنّ الغرض من آية يس يتحقق بذكر لفظٍ يدلُّ على الحجز بين الشّيئين على نحْوٍ محكَمٍ متين، وهذا ما ينهض به لفظ السّدّ، وأمّا جعلُ الشّيء على الشَّيء -كما في الرَّدم- ومِمَّ يكون؟ فغير مرادٍ، ولا يحسنُ صرفُ الذّهن إليه في مثل هذه الحال.

فإذا انتقلنا إلى التّوظيف النّبويّ للفظي الرّدم والسّدّ وجدنا أنّ لفظ السّدّ جاء في سياق الإخبار عن عمل يأجوجَ ومأجوجَ المستمرّ لفتح السَّدِّ، يقول النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم: ((إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لَيَحْفِرُونَ السَّدَّ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمْ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا. فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ كَأَشَدِّ مَا كَانَ ...))، ووجدنا أنّ لفظ الرّدم جاء في سياق الإخبار عن الشّر الذي اقترب من العرب. يقول النّبيّ صلّى الله

عليه وسلّم: ((فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ.)) ويقول: ((لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ.))

وتفسير ذلك الافتراق التّعبيري يجلّيه النّظر في سياق اللّفظين، والعرفان بما يقتضيه كلُّ سياقٍ، فإذا نظرنا في الحديث الأوّل وجدنا أنّه لم يكن ثمَّةَ شيءٌ يَشْغَلُ يأجوجَ ومأجوجَ غيرُ فتحِ المغلَق وهدم السّدِّ، فناسب هذه الحال أن يؤتى بلفظ السّدّ لِمَا في ذلك اللّفظ من دِلالةٍ على معنى إغلاق المفتوح إغلاقًا تامًّا كاملًا، وأمّا في الحديثين اللّذين جيء فيهما بلفظ الرّدم فكان النّبيُّ صلّى الله عليه وسلّم فَزِعًا ممّا نُقِبَ من ردْم يأجوجَ ومأجوجَ؛ إذ في ذلك النَّقْب - ولو كان يسيرًا- دِلالةٌ لا ريبَ فيها على اقتراب شرِّ أولئك القوم؛ وذلك أنّ الرّدم الذي بناه ذو القرنين كان آيةً في إحكام الإغلاق وإحسان البناء، ويستدعي نَقْبُه إلى الذّهن قصّة بنائه، وكيف كان ذو القرنين حريصًا على أن يصنعَه على نحوٍ يمنعُ إفسادَ يأجوجَ ومأجوجَ وأذاهم، فلذلك كان من المناسب التّعبيرُ بلفظ الرّدم، لا لفظ السّدِّ.

ولعلّه قدِ اتّضح ممّا سبق أنّ الاستعمال النّبويَّ للفظي الرّدم والسّدِّ جاء سائرًا على طريقة القرآن ومنهاجه، وأنّ كلا الاستعمالين يقرّر أنّ الفرقَ بين لفظيّ الرّدم والسّدّ ليس بكائنٍ في التّفاوت في معنيي الإغلاق والإحكام، وإنّما في المعنيين اللَّذين ذكرتُهما من قبلُ.

رابعًا: خاتمةٌ:

وبعدَ كلِّ ما قيل في العلاقة بين لفظي الرّدم والسّدّ، وموضوعِ توظيفِ القرآن والحديث لهما **نخلصُ إلى ما يلي:**

أوّلًا: أبرزتِ الدّراسةُ اختلافَ كلمة أهلِ العلمِ في شأن لفظي الرّدم والسّدّ، فلاحظتْ أنَّ **علماء اللُّغة** ذهبوا في الكلام على لفظي الرّدم والسّدِّ **مذاهبَ ثلاثة: فهي إمّا ترادف بين اللَّفظين، وإمّا ترجّح التّرادف، وإمّا تعرِض فرقًا، لكنّها لا تقطع بوجوده،** وذهب **المفسّرون** في الكلام على الرَّدم والسّدِّ **مذهبين اثنين**: أوّلهما: أنّ **الرّدْم أمكنُ من السّدِّ وأمنعُ**، وثانيهما: **تضعيفُ القول الأوّل** بقولهم: وقيل، والميلُ إلى القول بأنّهما بمعنى واحدٍ، وأمّا كتبُ **شروح الحديث** التي وقفتْ عليها الدّراسةُ فلم تعرِضْ للفرق بين لفظي الرّدم والسّدّ، **واكتفت بالمرادفة** بينهما.

ثانيًا: خلصتِ الدّراسةُ إلى أنّ **لفظي الرّدم والسّدّ يلتقيان في معنى الإغلاق وقوّتِه من غير تفاوتٍ**، واستندتْ في ذلك إلى استعمال آية الكهف الثّالثة والتّسعين، وآيةِ يس لفظَ السّدّ دالًّا على الغاية في إحكام الإغلاق.

ثالثًا: **اكتشفتِ** الدّراسةُ **فرقينِ** اثنين بين لفظي الرّدم والسّدِّ، **وهذانِ الفرقانِ هما**:

1- **إنّ السَّدَّ أعمُّ من الرّدم**، فلا يُطلقُ لفظُ الرّدم إلّا على ما جُعِلَ بعضُه فوقَ بعضٍ، وأمّا السَّدُّ فيُطلقُ على الرّدْم، وعلى ما ليس بردْمٍ، وذلك حين يكون السَّدُّ طبقةً واحدةً. وبذلك يمكننا أن نقولَ: **إنَّ كلّ ردْمٍ سدٌّ، وليس كلُّ سدٍّ ردْمًا**.

2- إنّ لفظ السّدّ حين يُطلقُ ينصرفُ الذّهن إلى **معنى إغلاق المفتوح إغلاقًا تامًّا، لكنْ من غير التّفكير في الطّريق الموصلة إلى ذلك**، وأمّا الرّدم فينصرفُ إلى **معنى إحكام الإغلاق**: **كيف يكون؟ ومِمّ يكون؟**

رابعًا: كشفَ التّحليلُ البيانيُّ لاستعمال القرآن والحديث لفظي الرّدم والسَّدِّ أنَّ **إيثار أحد اللفظين على الآخر مرجعُه إلى ما يقتضيه كلُّ سياقٍ من معنى**، وبيَّنَ أنَّ القرآنَ والحديثَ **كانا ناظرَين في تعبيرِهما إلى الفرق الذي كشفتْ عنه الدِّراسةُ**.

خامسًا- المصادر:

1- **القرآن الكريم**.

2- الإعجاز البياني للقرآن، ومسائل نافع بن الأزرق، د.عائشة عبد الرّحمن، دار المعارف، القاهرة، ط3، د ت.

3- أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل، ناصر الدّين أبو سعيد البيضاوي، تح: محمّد عبد الرّحمن المرعشلي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ.

4- البحر المحيط، أبو حيّان الأندلسي، محمّد بن يوسفَ، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420 هـ.

5- تاج العروس، مرتضى الزّبيدي، مجموعة من المحقّقين، سلسلة التّراث العربي، وزارة الإعلام، الكويت.

6- تحفة الأحوذي، أبو العلا المباركفوري، دار الكتب العلميّة، بيروت، دت.

7- التعريفات، عليّ بن محمّد الجرجاني، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1403هـ -1983م.

8- التّرادف في القرآن الكريم بين النّظرية والتّطبيق، محمّد نور الدّين المنجّد، دار الفكر، دمشق، ط1، 1417ه- 1997.
9- التّفسير الكبير، فخر الدّين الرّازي، دار الفكر، بيروت، ط1، 1401ه- 1981م.
10- تهذيب اللُّغة، أبو منصور الأزهري، تح: عبد السّلام هارون، وزملاؤه، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، القاهرة، د ت.
11- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمّد بن جرير الطّبري، تح: الدّكتور عبد الله بن عبد المحسن التّركي بالتّعاون مع مركز البحوث والدّراسات الإسلامية بدار هجر، دار هجر، القاهرة ط1، 1422ه، 2001م.
12- الجامع الصّحيح، محمّد بن إسماعيل البخاري، تح: د. مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط3، 1987م.
13- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمّد بن أحمد القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964 م.
14- جمهرة اللغة، محمّد بن الحسن بن دريد، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م
15- دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليّين، د. محمود توفيق سعد، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2009.
16- روح المعاني، محمود الألوسي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، د ت.
17- سنن التّرمذي، محمد بن عيسى الترمذي، حكم على أحاديثه محمد ناصر الدّين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، د ت.
18- الصّحاح تاج اللُّغة وصحاح العربيّة، إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1407ه- 1987م.
19- صحيح مسلم، مسلم بن الحجّاج، تح: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط1، 1374هـ 1955م.

20- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدّين العيني، دار إحياء التّراث العربي، بيروت.

21- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: د. مهدي المخزومي، إبراهيم السّامرائي، د ط، د ت.

22- فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تصحيح محبّ الدّين الخطيب، وعليه تعليقات ابن باز، خرج أحاديثه محمّد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، 1379ه.

23- القاموس المحيط، مجد الدّين الفيروزآبادى، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرّسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط8، 1426ه، 2005م.

24- الكاشف عن حقائق السّنن، شرف الدّين الطّيبي، نشر عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، ط1، 1997م.

25- الكشّاف، جار الله محمود بن عمر الزّمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407ه.

26- لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله الكبير، وزميلاه، دار المعارف، القاهرة، د ت.

27- المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطيّة الأندلسي، تح: عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1422ه، 2001م.

28- المحيط في اللغة، الصّاحب بن عبّاد، تح: محمّد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1414هـ - 1994 م

29- مختار الصّحاح، محمّد بن أبي بكر الرّازي، تح: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1415ه– 1995.

30- مسند أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، مؤسّسة الرّسالة، ط1، 2001 م.

31- المطر والغيث في القرآن والحديث، دراسةٌ بلاغيّة أسلوبيّة، خليل محمد أيوب، مجلّة كليّة الشريعة بجامعة عثمان غازي في تركيا، العدد الثاني، سنة 2015.

32- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزّجاج، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1408هـ - 1988 م

33- المعجم الاشتقاقيّ المؤصِّل لألفاظ القرآن الكريم، الدكتور محمّد حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2011م.

34- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تح: عبد السّلام هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

35- من مظاهر الافتراق الأسلوبيّ بين القرآن والحديث، مستوى الألفاظ أنموذجًا، مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الثّالث، المجلّد السّابع والثّمانون، 2014م.

36- نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور، برهان الدّين البقاعي، المكتب الإسلامي، القاهرة، د ط، د ت.

ينقل الجاحظ أن سياسة البلاغة أشدُّ من البلاغة[43]، والنصُّ القرآنيّ يعدُّ منبعًا من منابعِ البلاغة، ومن أعمقِ أبوابِ البلاغةِ معرفةُ روح النصِّ ومقدارِ استغراقِه للأدبيّة وارتدائِه لثوبِها حتى يكونَ إيّاها وتكونَ إيّاه، وإذا خرجْنا من لبوسِ البلاغةِ التقليديّة التي تجعلُ غايتَها الكشفَ عن استعارةٍ هنا أو تشبيهٍ هناك، وعن كنايةٍ أو وجْهٍ من وجوهِ البديع، وولَجْنا إلى رِحابٍ أوسعَ وأفقٍ أعلى لا يُهمِلُ البلاغةَ المعروفة ولكنّه يتّخذُ منها سبيلًا إلى نظرةٍ شاملةٍ إلى النصّ بكاملِه مهما كان طويلًا، حين نفعلُ ذلك فإننا نزعُمُ أنّنا نطرقُ باب الأدبيّة ونبوحُ ببعضِ خصائِصها ومظاهرها في هذا النصِّ الخالد، ونُدلي بدلْوِنا في الدّلاء الساعية إلى الفهمِ والتذوّق واكتشافِ لذّة النصّ وخصائصِ سموّه الفنيّةِ.

يسعى هذا البحث إلى بيانِ خصائصِ التّناسب في نصّ القرآن الكريم من خلال تطبيق ثمرات علم المناسبات أو التناسب على سورة البقرة أطول سور القرآن، والهدفُ

---

[43] انظر البيان والتبيين 197/1

من ذلك الإسهامُ في دراسة النصّ القرآنيّ دراسةً أدبية وبيانُ مظاهر قوّته وإحكامِه والردّ على الطاعنين في خصائِصه الأدبيّة، الذين ما فتئوا يحاولون النّيلَ من هذا النصّ العظيم بدعاوى مختلفةٍ لا تصمُدُ في مواجهةِ الأدلّة الأدبيّة التي تثبتُ إعجازَ هذا الكتابِ بيانيًّا.

وتعدّ سورةُ البقرة أطولَ نصٍّ قرآنيٍّ تجمعُه سورةٌ واحدة، والمُحاجِج يبادر إليها فيقول: كيف يمكنُ أن يكون هناك تناسب في مئتين وستٍّ وثمانين آيةً، موضوعاتُها مختلفة، ظاهرُها الانفصال والانقطاعُ فيما بينها؟

ولبيان ذلك سيتبع البحثُ الخُطّة الآتية:

- تعريف التناسب لغة واصطلاحًا.
- مصادر بيان صور التناسب في القرآن الكريم.
- مصادر الحديث عن التناسب في سورة البقرة.
- موضوع سورة البقرة الكبير.
- موضوعات سورة البقرة الفرعية وارتباطُها بالموضوعِ الرئيس.
- أنواع المناسبة وطرائقُ إيقاعِها بين الآياتِ في السورة.
- مصطلحاتُ بيانِ التناسبِ في السورة.

أوّلًا: تعريفُ التناسبِ لغةً واصطلاحًا:

لغة: النونُ والسِّين والباءُ كلمةٌ واحدةٌ قياسُها اتّصالُ شَيْءٍ بشَيْءٍ[44]، والمناسبة: المشابَهةُ والمُشاكلةُ، يقالُ: بين هذين مناسبةٌ وتناسُبٌ أيْ مُشابهةٌ وتَشابُه[45]. والمناسبةُ في اللغةِ: المقاربةُ، وفلانٌ يناسبُ فلانًا أيْ يقرُبُ منه ويشاكِلُه، ومنه النسيبُ: المتَّصل، وقد نقل الزركشيّ هذه المعاني في كتابه البرهان [46].

---

[44] انظر مقاييس اللغة 423/5

[45] انظر لسان العرب (نسب)

[46] البرهان في علوم القرآن 35/1

اصطلاحًا: علمُ التناسبِ هو العلمُ الكاشِفُ عن أوجه الترابطِ بين آياتِ القرآن الكريم وسورِه وعِلَلِ ذلك. ومُصْطلحا التّناسبِ والمناسَبةِ بمعنى واحدٍ[47].

وللعلماءِ السّابقين أقوالٌ مختلفةٌ في بيان هذا العلمِ والتعبير عنه والحض على تعلّمه، منها قولُ الزّركشي: ((اعلمْ أن المناسبة علم شريف تُحْزَرُ به العقولُ ويُعرفُ به قَدْرُ القائلِ))[48]، وقالَ البِقاعيُّ:((علمُ مناسباتِ القرآنِ: علمٌ تُعرَفُ منه عِللُ ترتيبِ أجزائِه، وهو سِرُّ البلاغةِ))[49].

مصادر بيان صُور التناسبِ في القرآن الكريم:

اهتمَّ العلماء المسلمون بالتناسبِ في القرآن الكريم منذ وقت مبكّر، وأورده المفسرون في تفاسيرهم خلال حديثهم عن الآيات القرآنية وأوجه التناسب فيما بينها، ومنهم من جعل ذلك جزءًا من منهجه، كما أَلَّفَ بعضُ العلماء فيه كتبًا مُفْردة منها:

- البرهانُ في ترتيبِ سُورِ القرآنِ لأبي جعفر أحمد بنِ إبراهيمَ بنِ الزُّبيرِ الثَّقفيّ العاصميّ الغرناطي الأندلسيّ المتوفّى سنةَ (708 هـ).
- نظمُ الدُّررِ في تناسبِ الآيِ والسّورِ لبرهان الدين أحمد بن عمر بن حسن البِقاعيّ المتوفى سنة (885هـ) ويقع في اثنين وعشرينَ مجلّدًا.
- تناسقُ الدّرر في تناسبِ السّور لأبي بكر السّيوطيّ (911 هـ).
- بيان نبذة من مناسباتِ سورةِ الفاتحةِ للشّيخ محمد المرعَشي المعروف بساجِقْلي زادة (1150 هـ)[50].
- ومن علماء العصر:

---

[47] انظر البلاغة في مناسبات سور القرآن وآياته

[48] البرهان في علوم القرآن 35/1

[49] نظم الدرر 6/1

[50] ومنه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم 5351، وقد ورد في إيضاح المكنون 696/4 تحت اسم: نهر النجاة في بيان مناسبات آيات أم الكتاب.

- ألّف الدكتور نور الدين عتر: علمُ المناسباتِ وأثرُه في تفسير القرآن الكريم.
- محمد الصدّيق الغِماري المغربي: جواهر البيان في تناسب سور القرآن.

ما سبق هو الكتب المُخصّصة لعلم المناسباتِ، وقد نوقشت في هذا العلم رسائل مختلفة منها رسائل ماجستير ورسائل دكتوراه،[51] أمّا كتب التفسيرِ التي اعتنت بهذا العلم فهي كثيرة منها: الكشّاف للزّمخشري وتفسير الرازي والبحرُ المحيط لأبي حيّان الأندلسيّ وتفسيرُ أبي السّعود الحنفيّ وتفسير الإمامِ الشوكانيّ وتفسيرُ التحرير والتّنوير لمحمد الطّاهر بن عاشور وغيرها كثير.

وعلمُ المناسبات علم اجتهاديٌّ يفتح الله فيه للمتأمّلين في آياتِ كتابه، الباحثين عن أوجه الحكمة في صِلَةِ بعضِها ببعضٍ، ويَهديهم إلى لطائفَ لم تخطرْ في بال، وهي ليست من الابتداعِ في شَيْءٍ، بل من خصوصية هذا القرآنِ العظيمِ الذي لا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبُه، ولا يخلَقُ على كَثرةِ الرَّدِّ.

مصادر الحديث عن التّناسبِ في سورة البقرة:

لبيانِ أوجهِ المناسبات في سورة البقرة سنعتمِدُ على مجموعة من المصادر هي: البرهانُ في ترتيبِ سُور القرآن لابن الزبير الغرناطي الأندلسي، ونظم الدّرر للبقاعي، وكتاب النبأ العظيم للعلامة محمد عبد الله دِراز.

موضوع سورة البقرة الكبير:

ثمّة قاعدة في علم المناسبات تقول: مطلع كلِّ سورة يُنْبِئُ عن موضوعِها، قال الحرالّي:((اعلم أنّه كما اشتملَ على القرآن كلِّه فاتحةُ الكتابِ، فكذلك أيضًا جعلَ لكلِّ سورة ترجمةً جامعةً تحتوي على جميعِ مثاني آيِها، وخاتمةً تلتئمُ وتنتظمُ بترجمتِها،

---

[51] ناقشت رسالتي للماجستير في جامعة دمشق قسم اللغة العربية وآدابها عام 1997م وهي بعنوان البلاغة في مناسبات سور القرآن الكريم وآياته، ووقفت في الشابكة على رسالة بعنوان التناسب القرآني في سورة البقرة نوقشت في الجامعة المفتوحة بغزة ولكني لم أتمكن من الوصول إليها.

ولذلك تُترجم السورةُ عدَّةَ سُور))[52]، ومطلعُ سورةِ البقرةِ هو قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] والكتاب الذي تتحدّث عنه الآية هو القرآن الكريم الذي أنزله الله سبحانه على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذن **موضوعُها هو القرآنُ الكريم**. يقول البقاعي:((مقصودُها إقامةُ الدليل على أنَّ **الكتابَ هدى ليُتَّبع في كل ما قال،** وأعظمُ ما يهدي إليه الإيمانُ بالغيب، ومَجمعُه الإيمانُ بالآخرة، فمدارُه الإيمان بالبعثِ الذي أعربت عنه سورةُ البقرة، ... فلذلك سُمِّيَتْ بها السورة)) وقال:((وإن شئتَ قلت: **مقصودُ هذه السورة وصفُ الكتابِ فقط**، وما عدا ذلك فتوابع ولوازم))[53].

الموضوعات الفَرعية في سورةِ البقرة:

وفي السورة موضوعات فرعيّة تتَّصلُ بموضوعِها الكبير، وهي:

- وصْفُ القرآنِ الكريم بأنّه كتابُ هداية وبأنّه الحقُّ الذي لا يصلُ إليه الشَّك بأي حال.
- عرضُ القرآن الكريم على النّاس وبيانُ موقفِهم منه وانقسامِهم إلى ثلاثةِ أقسامٍ: مؤمن به وكافرٍ به ومنافق.
- مناقشةُ الإنسانِ لإقناعِه بالإيمانِ بالقرآنِ الكريم وما فيه، وطريقةُ المناقشةِ أن تعرضَ الأفكارُ التي تعترض الإنسانَ وتمنعُه من الإيمان بالكتاب الكريم، ومنها بَدْءُ الخلقِ، وخلقُ آدمَ عليه السلام، والحديثُ عن الأممِ السابقة وموقفها من الكتاب أيضًا كبني إسرائيل.
- عرضُ نماذجَ للأحكام والأوامرِ والفرائض التي جاء بها القرآن الكريم.
- عرض النتيجة بعد كل ذلك بالحديث عن فئة الذين آمنوا بالكتاب وتضرُّعهم إلى الله تعالى أن يغفرَ تقصيرَهم في تطبيق أحكامِ الشَّرع التي جاءَ بها هذا الكتابُ.

---

[52] مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل 163

[53] نظم الدرر 78/1

وحين نعرف موضوع السورة الرئيسي يصبح ذلك مِفتاحًا لربط معاني آياتها به وبعضِها ببعضٍ، وفي هذه السورة الطويلة دأبت الآيات على التذكير بموضوعِها الرئيس وذلك في الآيات التالية:

- ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ** لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]
- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ **مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا** فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن **مِّثْلِهِ** وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 23 ـ 24]
- ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي **هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ** فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]
- ﴿**وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ** وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: 41]
- ﴿**وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ** وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89]
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ **آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ** قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 91]
- ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ **نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ** وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 101]
- ﴿ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ **أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ** وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105]
- ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا** أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]
- ﴿الَّذِينَ **آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ** أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121]

- ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ **يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ** وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[البقرة: 129]
- ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ **وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا**﴾ [البقرة: 136]
- ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ** كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: 146]
- ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى** مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[البقرة: 159]
- ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً** أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174]
- ﴿ذَلِكَ **بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: 176]
- ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ **مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ**﴾ [البقرة: 177]
- ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ **أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾ [البقرة: 185]
- ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ **وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ** وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]
- ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ **وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم** بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 231]
- ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ** وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]

إذن ليس من شكٍّ في أن الكتابَ هو الموضوع الرابط بين أجزاء السورة ، وعِلْمُ التّناسب في القرآن الكريم يُوضِّح العلاقةَ بينَ كلِّ آية فيها وهذا الموضوع، وبينَ كلِّ آيةٍ وآيةٍ، وبينَ مجموعةِ آياتٍ ومجموعةِ آياتٍ، وبينَ مُقدِّمةِ السّورة وخاتِمتِها، وبين السّورة والسّورة التي سبقَتْها والسّورة التي جاءَت بعدَها.

وقد نجدُ في كلامِ بعضِ مَنْ حاولَ استقصاءَ موضوعاتِ السّورة ما يُوهِمُ الانقطاعَ بين معاني آياتِه وانعدامِ التّرابطِ، ومن هؤلاء الفيروزآبادي الذي أوضح موضوعات السورة بما يأتي:((مَدْحُ مؤمني أهلِ الكتابِ، وذمُّ الكفّارِ كفّارِ مكّة، ومُنافقي المدينة، والردُّ على مُنكري النّبوّةِ، وقصّة التَّخليقِ والتعليمِ وتلقين آدمَ، وملامةُ عُلماءِ اليهودِ في مواضعَ عدَّة، وقصةُ موسى واستسقائه، ومواعدتِه ربَّه، ومنَّته على بني إسرائيل، وشكواه منهم، وحديثُ البقرة، وقصّةُ سليمان، وهاروت وماروت، والسحَرَة، والردُّ على النّصارى، وابتلاءُ إبراهيمَ عليه السلام، وبناءُ الكعبة، ووصيّةُ يعقوبَ لأولادِه، وتحويلُ القبلة، وبيانُ الصَّبر على المصيبةِ وثوابه، ووجوبُ السّعي بين الصفا والمروة، وبيان حُجَّة التوحيد ، وطلبُ الحلال، وإباحةُ الميّتةِ حالَ الضّرورة، وحكمُ القِصاص، والأمر بصيام رمضانَ، والأمرُ باجتناب الحرام، والأمرُ بقتال الكفّار، والأمرُ بالحجّ والعمرة، وتعديدُ النِّعم على بني إسرائيلَ، وحكمُ القتال في الأشهر الحرم، والسّؤالُ عن الخمر والميسر ومالِ الأيتام، والحيضُ، والطّلاقُ، والمناكحاتُ، وذكرُ العدّة، والمحافظةُ على الصّلوات، وذكرُ الصّدقات والنّفقات، وملكُ طالوت، وقتلُ جالوت، ومناظرةُ الخليل عليه السلام ونمرود، وإحياءُ الموتى بدعاءِ إبراهيم، وحكمُ الإخلاص في النّفقة، وتحريمُ الربا وبيانُ الزانيات، وتخصيص الرَّسول صلى الله عليه وسلم ليلةَ المعراج بالإيمان حيث قال: آمن الرسولُ ، إلى آخرِ السورة. هذا معظمُ مقاصدِ هذه السّورة الكريمة))[54]. وقد نقلنا هذا النص على طوله لأنه هام في توضيح رؤية أحد العلماء لموضوعات سورة طويلة.

وهو في بيان هذه المقاصد لا يسعى إلى عقدِ الصِّلات وبيانِ عِللِ التّجاور بين الآياتِ القُرآنيّة في هذه السّورة أو بين الموضوعاتِ التي ذكَرها، وهو استخلصَ عناوينَ هذه الموضوعاتِ وفهرَسَها من بدايتِها إلى نهايتِها. والظّاهر من هذه العناوينِ أنّها

---

[54] بصائر ذوي التمييز 135/1

موضوعاتٌ متفرّقة ، ولكن تأمّلَها بعنايةٍ مع النّظر إلى مِفتاحِ السّورة الأساسيِّ الذي ذُكرَ من قبلُ يبيّن أنّ هذه العناوين يمكنُ أن تصنّفَ وَفْقَ ما يأتي:

1. مواقفُ الأمم والأقوام السّابقين من الإيمان والردّ عليهم.
2. الحديث عن بدء التّخليق وقصّةِ آدم عليه السلام.
3. أحكامُ الفقه المتعلّقةُ بالحجّ والقتالِ والقصاصِ والخمرِ والميسرِ والزّواج والطلاقِ وما يتّصل بهما من أحكامٍ، والصوم والصّدقاتِ والرّبا.
4. الحديثُ عن إيمانِ الرسولِ ومَنْ معه بالقرآن الكريم.

والفيروزآبادي لا يعرضُ الموضوعاتِ بقصد بيان الصلاتِ بينَ الآياتِ وعللِها، وإنما يعرضها ويقدّمها للمختصّ في بيان المناسبات ليحلِّلها ويرى هل تتّفقُ جميعًا في الارتباطِ بموضوعٍ واحدٍ.

أما سيّد قطب فيرى أن السورةَ تدورُ على مِحورين كبيرَيْن هما حسَبَ قوله: ((هذه السورة تضمّ عدّة موضوعات . ولكنَّ المحور الذي يجمعها كلَّها محورٌ واحد مزدوج يترابط الخطّان الرئيسيانِ فيه ترابطًا شديدًا . . فهي من ناحية تدور حول **موقفِ بني إسرائيل من الدّعوة الإسلاميّة في المدينة**, واستقبالهم لها, ومواجهتهم لرسولها صلى الله عليه وسلّم وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها وسائر ما يتعلّق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القويّة بين اليهود والمنافقين من جهة, وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى. وهي من الناحية الأخرى تدور حول **موقفِ الجماعة المسلمة في أول نشأتها; وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض**, بعد أن تُعلن السّورة نُكولَ بني إسرائيل عن حملِها, ونقضَهم لعهدِ الله بخصوصِها , وتجريدهم من شرف الانتسابِ الحقيقيّ لإبراهيم - عليه السلام - صاحب الحنيفيّة الأولى, وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العَثَرات التي سبَّبت تجريدَ بني إسرائيل من هذا الشّرف العظيم . وكلُّ موضوعات السورة تدورُ حولَ هذا المحور المزدوج بخطّيه الرئيسيين))[55] ولكنّ تأمّل ما ذكره لا ينافي أن يكونَ القرآنُ الكريم هو عمودَ موضوعاتِ هذه السورة؛ فموقف بني إسرائيل من الدّعوة يتضمّن بالضّرورة موقفَهم من كتاب الدّعوة الجديدة وهو القرآن

---

[55] في ظلال القرآن 28/1

الكريم، ولذلك وردت في أثناء الحديث عن بني إسرائيل آياتٌ كثيرةٌ تذكّرُهم بالكتابِ وبأنّهم كذَّبوا به وبمَنْ أُنزلَ عليه عليه السلام كقوله تعالى:﴿**وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ** وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[البقرة: 41] وقوله تعالى:﴿**وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ** وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ، بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله﴾[البقرة:89 ـ 90] وقوله:﴿ولَقَدْ **أَنْزَلْنا إليكَ آياتٍ بَيِّناتٍ** وما يَكْفُرُ بها إلّا الفاسِقونَ﴾[البقرة: 99] وقوله:﴿الّذينَ آتيناهُمُ الكِتابَ يَتْلونَهُ حَقَّ تلاوتِهِ أولئكَ يُؤْمِنونَ بِهِ ومَنْ يكْفُرْ به فأولئك هُمُ الخاسرون﴾[البقرة: 121].

- أمّا المحور الثاني الذي ذكره صاحبُ الظّلالِ فهو موقفُ الجماعةِ المسلمةِ في أوّلِ نشأتِها وإعدادها لحمل الدعوة، فأيضًا يرتبط بالقرآن الكريم الذي عُرض على النّاس فوقفوا منه مواقفَ مختلفةً، وكان موقف هذه الجماعة الإيمانَ به والتسليمَ لما جاء به، والشّروع لاتّباع أوامره والابتعاد عن نواهيه من أجلِ البناء، وثمّةَ آياتٌ كثيرة في هذا المحور تَذكُرُ الكتابَ وتذكّر به، منها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ **يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ** وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[البقرة: 129]وقوله تعالى ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ **وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا**﴾[البقرة: 136] وقوله:﴿ذَلِكَ **بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[البقرة: 176] وقوله:﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ **أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[البقرة: 185] وقوله:﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ** وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[البقرة: 285]. وبهذا يكون أيُّ تصنيفٍ لموضوعاتِ السّورةِ مما قرأناه متعلّقًا بموضوعها الكبير حتى وإن كانَ ظاهرُه لا يُوحي بذلك.

وقد درس العلّامة محمد عبد الله دِراز نظام المعاني في سورة البقرة ضِمنَ كتابه القيّم:(النبأ العظيم)، وفيه يرى أنّ السورة تتألّف من مقدّمة وأربعة مقاصدَ وخاتمة، وذلك حسبَ ما يأتي:((المقدّمة: في التعريف بشأن هذا القرآن، وبيان أنّ ما فيه من الهداية قد بلغَ حدًّا من الوضوح لا يتردّد فيه ذو قلبٍ سليم، وإنما يُعرِض عنه مَنْ لا قَلْبَ له، أو منْ كانَ في قلبِه مرضٌ.

- المقصد الأول: في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.
- المقصد الثاني : في دعوة أهل الكتاب دعوةً خاصّة إلى تركِ باطِلِهم والدّخولِ في هذا الدّين الحقّ.
- المقصد الثالث: في عرض شرائعِ هذا الدّين تفصيلًا.
- المقصد الرابع: ذكر الوازع والنّازع الدّينيّ الذي يبعث على ملازمةِ تلك الشّرائعِ ويعصِمُ عن مخالفتِها.
- الخاتمة: في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدّعوة الشاملةِ لتلكَ المقاصِد، وبيان ما يُرجى لهم في عاجِلِهم وآجلِهم)).[56]

وفي المقصد الثاني في الحديث عن دعوة بني إسرائيل خاصة توزّعت الآيات وفق ما ذكره الدكتور دراز على تدرّج وبقدرٍ معلوم ((فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به في ست آيات (41 ـ 46) وبيَّن مقدار النعمة التي امتنّ بها عليهم في الآية (47) ومقدار المخافة التي خوفهم في الآية التي تليها (48)، ثم قسم الحديث إلى أربعة أقسام:

1. القسم الأول يذكر فيه سالفة اليهود منذ بعث الله فيهم موسى عليه السلام.
2. القسم الثاني يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية.
3. القسم الثالث يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام.
4. القسم الرابع يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة.))[57].

تتبع ذلك بقية موضوعات السورة التي تتلخّص في تقرير وحدةِ الخالق وكونه الآمر النّاهي وذكر الطاعات المطلوبةِ وتفصيل كيفية بناء المجتمعِ المسلم كما أوصى بها الكتاب الكريم، ثم خاتمة السورة وهي الحديث عن المؤمنين بالكتاب ودعائهم الله كي يتقبّل منهم ويُجزل مثوبتَهم في الآخرة.

---

[56] النبأ العظيم 163

[57] المرجع السابق 178 ـ 179

أنواع التناسب وطرائق إيقاعه بين آيات السورة:

المتأمّل لطريقة القرآن في إيقاع التناسب بين الآيات يستطيع أن يتبيَّن مجموعةً من الخصائص والطّرائق لإظهار التناسب منها ما هو معنويٌّ ومنها ما هو لفظيٌّ وشكليٌّ، ولتوضيح ذلك نوردُ ما يأتي:

ثمة أنواع للمناسبة يعمد إليها القرآن الكريم تطّرد في كلِّ سور القرآن وفي آيات كلِّ سورة على حِدة، وهي:

- **مناسبة الفاصلة للآية**، ويسمّى ذلك ائتلاف الفاصلة مع سائر الآية، ويقابله في البلاغة العربية ائتلاف القافية مع ما يدلُّ عليه سائرُ البيت[58]، وهذا مطَّردٌ في كلّ آياتِ القرآن الكريم، ويحتاجُ إلى دراسة مفصّلة، وقد ذكره الزركشي في البرهان في علوم القرآن بقوله: ((واعلمْ أنَّ إيقاع المناسَبة في مقاطع الفواصل حيث تطّرد متأكِّدٌ جدًّا، ومُعتبَر في اعتدال نَسَق الكلام وحُسن موقعِه من النّفسِ تأثيراً عظيماً، ولذلك خرجَ عن نَظْمِ الكلامِ لأجلِها في مواضعَ: (أحدُها) زيادةُ حرفٍ لأجلِها، ولهذا ألحقت الألف بـ (الظنون) في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾[الأحزاب 10]، لأنّ مقاطع فواصِل هذه السورة أَلِفاتٌ منقلِبة عن تنوين في الوقف، فزيدَ على النّون الألفُ لتساوي المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل، ومثلُه:﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلا﴾[الأحزاب 76]، ﴿وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولا﴾[الأحزاب 66]))[59].
- مناسبة الآية للآية، ويكون التّناسبُ بطرائقَ مختلفة منها إعادةُ لفظةٍ وردت في الآيةِ السابقة، أو التعلّقُ في الإعراب، كأنْ يكون أوّلُ الآيةِ معمولًا لكلمةٍ في آيةٍ قبلَها، أو أن يكونَ موضوعُ الآيتين واحدًا، أو أن تتناسبَ الآيتان في وزنِ الفاصلةِ، أو ما يحدُث من تغيير في الفاصلةِ لتناسبَ الآيةَ السّابقةَ، أو أن يكونَ أوّلُ الآية الثانيةِ جوابًا لسؤالٍ وردَ في الآيةِ السّابقة، أو أنْ يكونَ في الآيةِ اسمُ إشارةٍ يعودُ إلى لفظٍ أو معنى في الآيةِ السّابقة، أو أنْ تتتالى

---

[58] انظر بديع القرآن 89 ونقد الشعر 167 والبلاغة في مناسبات سور القرآن الكريم وآياته 112

[59] البرهان في علوم القرآن 60،61/1

مجموعةُ آياتٍ بصيغة السؤالِ فيكون هو الذي يؤسّس التّرابط فيما بينَها إضافة إلى وَحدةِ الموضوع، أو أن يكونَ في الآيةِ الثانية ضميرٌ متّصلٌ أو منفصلٌ يعود على مذكورٍ في الآيةِ السابقة[60].

- **مناسبة الآية للغرضِ العامّ للسّورة**، وهي إمّا أن تكونَ واضحَة الصّلة كما في الآياتِ التي يُذكر فيها الكتابُ أو أيُّ صفة من صفاتِه في سورة البقرة كما في الآيات التي ذُكرت في أوّلِ هذا البحث، وإمّا أن تحتاجَ إلى تأمُّلٍ وتدبُّرٍ واكتشافٍ لوجْهِ الترابُط بين الآيةِ وغرضِ السّورة.
- **مناسبةُ فاتحةِ السّورة لخاتمة التي قبلَها**، كما بين فاتحة البقرةِ والفاتحة، إذ ورد في الفاتحةِ: ﴿اهدِنا الصّراط المستقيمَ﴾[الفاتحة: 6] فكانَ في أوّل البقرة أنّ اسمَ الإشارة وما بعدَه هو الإجابة لهذا الدعاء؛ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: 2].
- **مناسبة خاتمة السورة لفاتحة التي قبلها**، وقد أشار إلى ذلك السيوطيُّ بقوله:((إذا وردت السّورتان بينهما تلازمٌ واتّحادٌ فإنّ السورةَ الثانية تكون خاتمتُها مناسبةً لفاتحةِ الأولى للدَّلالةِ على الاتّحاد. وفي السورةِ المستقلةِ عمّا بعدَها يكون آخرُ السّورة نفسِها مناسبًا لأوّلها. وآخرُ آلِ عِمران مناسبٌ لأوّل البقرةِ فإنّها افتُتِحتْ بذِكْرِ المتّقينَ وأنّهم المفلحون، وخُتمتْ آلُ عِمران بقولِه:﴿واتّقوا الله لعلّكم تفلحون﴾[البقرة:189]))[61]، ومعنى هذا الكلامِ أنّ هناك نظامًا مركّبًا في القرآن الكريم للتّناسب يظهر تارةً بوضوح ، وتارةً أخرى يختفي لكنّ التفسير والقرائنَ الأخرى يدلّان عليه، وهذا ما يحفِزُ العقلَ للتفكّر في الصّلاتِ بين الآياتِ أو بينَ السور.
- مناسبةُ السّورة للسّورة وهذا مطَّرد في جميع القرآنِ، وقد ألَّفَ فيه السيوطيّ كتابه: تناسق الدرر في تناسب السور، وألَّفَ فيه الغِماري: جواهر البيان في تناسب سور القرآن.

---

[60] انظر البلاغة في تناسب سور القرآن الكريم وآياته 113 ـ 117

[61] تناسق الدرر في تناسب السور 120

وبتطبيق هذه الأنواع على سورة البقرة يتّضح جليًّا معنى إحكامِ الآيات في قوله تعالى:﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود 1]، ويتَّضِح أيضًا وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن الكريم وهو الإعجازُ بالتناسب، وفي سورةِ البقرة أمثلةٌ لكلّ ما سبقَ من هذه الأنواع، ولكنَّ إيرادَها يطيلُ البحث. والذي يعنينا هنا هو إيضاحُ المصطلحات التي استخدَمَها العلماء في بيان التناسب.

مصطلحات العلماء في بيان التناسب:

بدايةً لا بدَّ من التنبيهِ على أنّ المصطلحات التي تعبّر عن المناسبة أو التناسب القرآنيّ كثيرة جدًّا كثرةً يصعُبُ معها إيرادُها جميعًا، ولذلك سنختارُ بعضَها ممّا له دلالةٌ واضحةٌ على التناسبِ:

- **مقصودُ السورة**: ومقصودُ سورةِ البقرةِ عند البِقاعي مثلًا :((إقامةُ الدليل على أن الكتاب هدًى ليتبع في كل ما قال))[62]، وقال:((مقصود هذه السورة وصف الكتاب فقط وما عدا ذلك فتوابعُ ولوازمُ ولن يثبتَ أنّه هدى إلّا بإثباتِ أنه حقّ معنى ونظمًا))[63]، وبداية كل سورة تنبئ بمقصودها، ويطّرد هذا في جميع القرآن الكريم.
- **غرض السورة**، وفي سورة البقرة يكون الكتابُ هو غرض السورة، قال البقاعي:((وفيها إشارة إلى أنَّ هذا الكتاب فينا كما لو كان فينا خليفةٌ من أولي العَزْمِ من الرُّسلِ يُرْشِدُنا في كلّ أمرٍ إلى صوابِ المخْرجِ منه، ومن تردّد كادَ، ومن أجابَ اتّقى وأجادَ))[64]، والغرض والمقصود معناهما متقارب.
- **البيانُ بعد الإبهام** كمناسبة أوّل البقرة لقولِه تعالى في سورة الفاتحة:﴿اهْدِنا الصّراطَ المستقيم﴾ [الفاتحة:6]ففي البقرة بيّن لهم صفاتِ الفريقين الممنوحين بالهداية حثًّا على التخلّق بها وزجرًا عن قربها[65].

---

[62] نظم الدرر 54/1

[63] المصدر السابق 78/1

[64] المصدر السابق 57/1

[65] انظر المصدر السابق 77/1

- **التعريفُ بعد النّكْر** كقوله تعالى:﴿هُدى للمُتَّقينَ ، الّذينَ يُؤمنونَ بالغَيْبِ ويقيمونَ الصّلاةَ﴾[البقرة:2 ـ 3]؛ فقد ذكر المتقين ثم عرّف صفاتهم بأنهم يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة.
- **الالتفاتُ**، وهو كثير في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى:﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة: 28] عَقِبَ قولِه تعالى:﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[البقرة: 27] قال البقاعي:((ولما دعا سبحانه إلى التوحيد ودلَّ عليه وأنذر من أعْرَضَ وبشّر مَنْ أقْبَلَ وذَكَرَ حالَ الفريقين في قبولِ الأدلَّةِ التي زُبدتُها الأمثال ... التفتَ إلى تبكيتِ المُدْبِر لعلّه يستبصرُ))[66]، والالتفات أسلوب عربي استخدمه القرآن لإشاعة الحركة في الخطاب القرآني ودفع الملل عن القارئ، وهو من اساليب تمكين المعنى في القرآن الكريم.
- **رأس الخطاب**، وهو أن تبدأَ مجموعةُ آياتٍ في موضوع واحدٍ بأسلوبِ خطابٍ، وهذا الأسلوبُ يتجدّدُ معَ كلِّ مجموعةٍ بما يناسبُها، فقولُه تعالى:﴿كيفَ تكفرونَ باللهِ﴾[البقرة: 28] رأسُ مجموعةِ آياتٍ تلاها الحديثُ عن بني إسرائيلَ فخاطبَهم بقولِهِ تعالى:﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[البقرة: 4]، نقل البقاعيُّ عن الحرالّي:((ثم أقبلَ الخطاب على بني إسرائيل منتظمًا بابتداء خطاب العرب من قوله:﴿يا أيُّها النّاس﴾[البقرة: 21]، وكذلك انتظام القرآن إنما ينتظم رأسُ الخطابِ فيه برأسِ خطابٍ آخرَ يناسِبُه في جملةِ معناه وينتظمُ تفصيلُه بتفصيلِه، فكانَ أوّل وأولى من خُوطِب بعد العربِ الذين هم ختامُ بني إسرائيل الذين هم ابتداء، بما هم أوّلُ من أنزلَ عليهم الكتابة الأولى من التّوراة التي افتتح الله بها كتبه تلوَ صُحفِه وألواحِه))[67] ، وفي الإشارة إلى هذا المصطلح نستنتج أن الخطاب القرآني أو أي

---

[66] المصدر السابق 212/1

[67] المصدر السابق 311/1

خطاب متميز يستخدم طريقة مناسبة لإيصال مضمونه وتمكين هذا المضمون عن القارئ، ويستحق هذا الأمر دراسة مفصلة.

- **التخويف بعد الترجية** قال ابن عطية:((وقوله تعالى:﴿والله رؤوف بالعباد ﴾[البقرة: 207] ترجية تقتضي الحضَّ على امتثال ما وقع به المدح في الآية كما في قوله تعالى:﴿فحَسْبُه جَهَنَّمُ﴾[البقرة: 206] تخويفٌ يقتضي التّحذيرَ مما وقعَ به الذمُّ في الآيةِ))[68].
- **ذِكْرُ المُجْملِ ثم تفصيلُه**، أو الإجمالُ ثم التفصيلُ، قال البقاعي:((ولـمَّا وصفهم بالإيمان جملةً أشار إلى بعض تفصيلِه على وجهٍ يدخلُ فيه أهلُ الكتابِ دخولًا أوّليًّا فقال:﴿والذين يؤمنون بما أُنْزِلَ إليك وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبالآخرةِ هُمْ يُوقِنونَ﴾[البقرة: 4]))[69] وقال في موضع آخر:((وتصنيفُ النّاس آخرَ الفاتحةِ ثلاثةَ أصنافٍ: مهتدين ومعاندين وضالّين، مثلُ تصنيفهم أوّل البقرةِ ثلاثة: متّقين وكافرين مُصارحين وهم المعاندون وضالّين وهم المنافقون، وإجمالُهم في الفاتحة وتفصيلُهم هنا من بديع الأساليبِ، وهو دأبُ القرآنِ العظيمِ الإجمالُ ثم التفصيلُ))[70]، وعلى هذا الكلام يمكن إضافة **التصنيف** إلى مُصطلحات التّناسب، وهو أيضًا من استراتيجيات الخطاب القرآنيّ.
- **الاستئنافُ البيانيّ**، وفي الاستئنافِ البيانيّ علاقةٌ معنويّة بين الجملةِ المُستأنفة وما قبلَها، فالجملتان في سياقٍ واحد، وكأنَّ الجملةَ الثانيةَ جوابٌ عن سؤالٍ تولَّد من الجملةِ الأولى، وقد ذكرَ البِقاعيُّ أمثلةً كثيرة لذلك في سورة البقرة كقولِه تعليلًا للرّبط بين قولِه تعالى في نهايةِ الكلام على المؤمنين الذين آمنوا بالكتاب والغيب:﴿وأولئكَ هم المفلحون﴾[البقرة: 5] وقوله تعالى:﴿ إنَّ الذين كَفَرُوا سَواءٌ عليهِم﴾[البقرة: 6]:((ولما أردفَ البيان لأوصاف المؤمنين التعريف بأحوال الكافرين، وكانوا قد انقسموا على مصارحين ومنافقين ، وكان المنافقون قسمين

---

[68] المحرر الوجيز 268/1

[69] نظم الدرر 86/1 ـ 87

[70] المصدر السابق 102/1

جُهّالًا من مشركي العربِ وعلماء من كفار بني إسرائيل كان الأنسب ليفرغ من قِسْمٍ برأسِه على عَجَلٍ البداءةَ أوّلًا بالمصارحين فذكَرَ ما أرادَ من أمرِهم في آيتين، لأنَّ أمرَهم أهون، وشأنَهم أيسرُ لقصدِهم بما يوهِنُهم بالكلامِ أو بالسّيفِ على أنَّ ذكرَهم على وجْهٍ يعمُّ جميعَ الأقسامِ فقالَ مخاطبًا لأعظمِ المنعم على وجْهِ التّسليةِ والإعجازِ في معرِضِ الجوابِ لسؤالِ منْ كأنَّه قال: هذا حالُ الكتابِ للمؤمنينَ فما حالُه للكافرين؟:﴿إنَّ الذين كفروا﴾[البقرة: 6]))[71]

- **ذكرُ الأفعال ثم الإخبارُ بثمرتِها**، قال البقاعي :((ولما أخبر عن أفعالهم الظاهرة والباطنة أخبر بثمرتها فقال: أولئك على هدى من ربهم))[72]، فأفعالهم الظاهرة هي الصلاة والزكاة، والباطنة هي الإيمان الذي يعلمه الله سبحانه وتعالى، والوصف بأنهم على الهدى مكافأة لهم وثواب من الله على أفعالهم وإيمانهم.
- **مقدّمة السّورة وخاتمتُها**، نقل البِقاعي عن الحرالّي:((اعلم أنه كما اشتمل على القرآن كله فاتحة الكتاب فكذلك أيضا جعل لكل سورة ترجمة جامعة تحتوي على جميع مثاني آيها، وخاتمة تلتئِمُ وتنتظمُ بترجمتِها، ولذلك تُترجِمُ السُّورةُ عدَّة سورٍ))[73]، وهذا يضاف إلى طرائق الخطاب القرآني.
- **التعليلُ لما سبقَ**، قالَ البِقاعيُّ:((ولما كان من أعجبِ العجبِ كونُ شَيْءٍ واحدٍ يكونُ هدى لناسٍ دونَ ناسٍ علَّلَ ذلك بقولِه:﴿ختمَ الله﴾[البقرة: 7] أيْ على قلوبِهم أيْ ختمًا مستعليًا عليها فهي لا تعي حقَّ الوعيِ، لأنَّ الختمَ على الشيْءِ يمنعُ الدخول إليه والخروج منه))[74]، وأسلوب التعليل يقوي الروابط بين أجزاء الكلام من جهة المعنى ومن جهة اللفظ، أمّا المعنى فواضح، وأما اللفظ فلأن من مقتضيات التعليل الإشارة إلى ما هو في حاجة إلى التعليل لفظًا عن طريق تكرار ذكره، أو الإشارة إليه بالضمير أو غير ذلك.

---

[71] المصدر السابق 1/91 ـ 92

[72] المصدر السابق 1/90

[73] المصدر السابق 1/137 في تفسير قوله تعالى:﴿ أتأمرونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وتَنسَونَ أنفُسَكُمْ﴾ [البقرة 44]

[74] المصدر السابق 1/37

- **أسلوب (لـمّا) وجوابُها**، وهذا مطَّرد كثيرًا عند علماءِ التناسبِ يقولون: ولـمّا خاطبهم بكذا وصنعُوا كذا ، ثم يأتون بالفعلِ الماضي في الجوابِ، قال البِقاعي: ((ولما أنكر عليهم اتّباع الهوى أرشدَهم إلى دوائِه بأعظمِ أخلاقِ النّفسِ وأجلِّ أعمالِ البدنِ فقالَ عاطفًا على ما مضى من الأوامر))[75]، ويكون ما بعد (لـمّا) كأنّه تعليل وتأسيسٌ للجواب، وهذا لتوضيحِ شدَّة التّرابط بين الآياتِ.
- **التّكرار** لغايةٍ معنويّة، فحالُ المخاطبين قد يكونُ داعيًا إليه، قال البِقاعي:((ولـمّا كان الغالبُ على أكثرِ النّاس الجمودَ كرّر النداءَ لهم مبالغةً في الّلطفِ بهم إثر الترجيةِ والتخويفِ فقال﴿يا بني إسرائيل﴾[البقرة: 40]، أي الذي أكرمته وأكرمْت ذريّته من بعدِه بأنواع الكرامةِ اذكروا نعمتي))[76]، والتكرار واحد من أساليب الكلام العربي، وهو في الكلام الفصيح يكون لغاية معنوية.
- **البدء بالأنسب** قال البقاعي:((ولما أردف البيان لأوصاف المؤمنين التعريف بأحوال الكافرين وكانوا قد انقسموا على مصارحين ومنافقين وكان المنافقون قسمين جهالاً من مشركي العرب وعلماء من كفار بني إسرائيل كان الأنسب ليفرغ من قسم برأسه على عجل البداءة أولاً بالمصارحين فذكر ما أراد من أمرهم في آيتين))[77]، وهذا من أدبيات الخطاب القرآني، وقد نوقشت في التقديم والتأخير رسائل مختلفة[78].
- **دعوة الخاص بعد دعوة العام**؛ ففي سورة البقرة من الآية 40 إلى الآية 162 خطابٌ مفصّل لبني إسرائيل، يأتي هذا الخطاب بعد دعوةٍ لليهود كي يؤمنوا بالكتابِ وبما جاء به هذا الكتاب، وخصّهم بهذا العدد من الآيات لأنهم ((كانوا يسكنون المدينةَ المنوّرة مع المسلمين وكانوا أشد الناس عداوةً للذين آمنوا

---

[75] المصدر السابق 338/1

[76] نظم الدرر 345/1

[77] المصدر السابق 91/1

[78] مثل رسالة الدكتور خلدون صبح: التقديم والتأخير في القرآن الكريم.

وأكثرهم جدالًا في دينهم بما أوتوه من العلم قبلًا، وقد تفنن خطابهم فتارة يكون بصيغة الهجوم وتارة بالدفاع وتارة بالاستمالة وتارة بالاستطالة))[79].

- **التقابل في المعنى**؛ ففي ذكر الفئات الثلاث الذي أعقب الحديث عن القرآن الكريم تقابُلٌ معنويّ من حيث الحديث عن وصفِ الحقيقة الواقعةِ للفئة وبيان السّبب فيها ثم الإخبار عن نتيجة موقفِها وعاقبتِه المنتظرة[80].
- **وصفُ الحال ثم الإخبار بالمآل**، قال البقاعي:((ولما كان هذا الختم مؤذناً بالعذاب وكان إتيان العذاب من محل تتوقع منه الرحمة أفظع وكان أنفع الأشياء السّحاب لحملِه الغيث والملائكة الذين هم خير محْضٌ وكان الذين شاهدوا العذابَ من السّحاب الذي هو مَظِنّةُ الرّحمة ليكون أهول عاداً وبني إسرائيل، وكان عاد قد مضوا فلا يمكن عادة سؤالهم وكان من زلّ بعْدَ هذا البيانِ قد أشبهَ بني إسرائيل في هذا الحالِ فكان جديراً بأن يشبههم في المآلِ فيما صاروا إليه من ضربِ الذلّة والمسْكنَةِ وحلولِ الغضبِ والوقوعِ في العطبِ قال تعالى:﴿هل ينظرون﴾[البقرة: 210] أيْ ينتظرون إذا زلّوا))[81]، وهذا الأسلوب مطّرد في القرآن الكريم، فالقرآن كتاب هداية ومن ركائز خطابه الحديث عن حال الناس في الحياة الدنيا وذكر نتائج أعمالهم عندما يصيرون إلى الآخرة.
- **ذِكْر الشّيءِ وإتباعُه بأثره**؛ فقد ذكر الله القرآن الكريم في أوّل سورة البقرة ثم أتبعَه بيان أثره في الناس وانقسامهم في الإيمان به إلى فئات ثلاث[82].
- **الاستنتاجُ من المقدّمات** قال البقاعي:((ولما ثبَت بعجزِهم عن المعارضةِ أنَّ هذا الكلام كلامُه سبحانَه ثبَتَ أنَّ ما فيه من الأمثالِ أقوالُه فهدَّدَهم في هذه السّورةِ المدنيّة على العِنادِ، وتلاه بالآيةِ التي أخبرَ فيها بأنَّ ثمارَ الدّنيا وأزواجَها وإن شابهت ما في الجنّة بالاسمِ وبعضِ الشّكل فقد باينتْه بالطّعوم والطّهارة وما لا

---

[79] النبأ العظيم 178

[80] انظر المرجع السابق 166

[81] نظم الدرر 1/ 388

[82] انظر النبأ العظيم 165

يعلمُه حقَّ علمِه إلّا اللهُ تعالى فاضمَحلّت نسبتُها إليها , وكان في ختمِ الآية بـ ﴿خالدون﴾[البقرة: 39] إشارةٌ إلى أنّ الأمثالَ التي هي أحسنُ كلامِ النّاس وإن شابهت أمثالَه سبحانه في الاسمِ ودوامِ الذكْرِ فلا نسبة لها إليها لجهاتٍ لا تخفى على المنصفِ، فلم يبْقَ إلا طعنُهم بأنّها لكونِها بالأشياء الحقيرة لا تليقُ بكبريائِه؛ فبيّنَ حُسنَها ووجوبَ الاعتداد بها وإنعامِ النظر فيها بالإشارة بعدم الاستحياء من ضربِها لكونِها حقًّا إلا أنَّ الأشياءَ كلَّها وإن عظُمَتْ حقيرةٌ بالنسبة إل جلالِه وعظمتِه وكمالِه , فلو تركَ التمثيلَ بها لذلكَ لانْسَدَّ ذلك البابُ الذي هو من أعْجَبِ العُجابِ فقال تعالى على طريقِ الاستنتاج من المقدّمات المسلَّمات وأكّد سبحانَه دفعاً لظنّ أنّه يترك لما لبّسوا به الأمثال التي هي أكشَفُ شيْءٍ للأشكال وأجْلى في جميعِ الأحوال))[83]، والخطاب القرآني يتبع هذا الأسلوب في الحجاج والإقناع بكثرة.

- **استعمال الحروف أداة للانتقال والربط**: ففي قوله تعالى:﴿ذلك الكِتابُ لا رَيْبَ فيه﴾[البقرة: 2] وصف للكتاب، والذي يأتي بعدَ هذا وصفٌ للمؤمنين به، وقد انتقلَ القرآنُ الكريم من الحديثِ عن الكتابِ إلى الحديثِ عن المؤمنين به عن طريقِ حرفِ الجرّ (اللام) في قوله:﴿لا ريبَ فيه هُدى للمُتّقين، الذين يؤمنونَ بالغَيبِ ﴾[البقرة: 2 ـ 3] قال الدكتور دراز: ((فكانت هذه اللام هي المِعبَرةَ السريّة التي انزلق عليها الكلامُ وانصبَّ انصبابًا واحدًا إلى نهاية الحديث عن المؤمنين))[84].
- **الاحتباكُ** قال البقاعي:((والمعنى أنّهم جمعوا بالكفر والتكذيب بين إنكار القلوب والألسنة ﴿أولئك﴾ أي البُعَداء البغضاء ﴿أَصْحابُ النَّارِ﴾ وبين اختصاصهم بالخلود بقوله:﴿هم فيها خالدون﴾[البقرة: 39] فعليهم الخوف الدائم لما يأتي من أنكالها والحزن الدائم على فوات الجنة, فالآية من الاحتباك, انتفاء الخوف

---

[83] نظم الدرر 198/1

[84] النبأ العظيم 165

والحزن من الأول دالٌّ على وجودِهما في الثاني , ووجودُ النّار في الثاني دالٌّ على انتفائِها ووجودِ الجنّة في الأوّل))[85].

الخاتمة:

مما سبق تبين لنا أن علم التناسب علم عظيم يفيد دارسي القرآن الكريم في :

- اكتشاف مستويات من المعاني من منظور علم التناسب، ذلك أن المفسر إذا قرأ القرآن بالنظر إلى هذا العلم تكشفت له المعاني التي يحتملها نص القرآن الكريم وهي بخلاف المعاني التي كان المفسر يصل إليها بالأدوات الشائعة، فهذا العلم باب لفتوح من المعاني والكشف وفق تعبيرات المتصوّفة.
- الوصول إلى وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن الكريم هو الإعجاز بالتناسب والترابط بين الآيات، وهو كما تبين لنا من سورة البقرة يدفع الإنسان إلى تذوق أدبية القرآن الكريم، ولخفاء التناسب ودعوته العقل والفكر إلى البحث عنه مزيد من المتعة الأدبية التي يسعى متذوق الفن القولي وراءها في النصوص.
- أن دراسة التناسب في سورة البقرة قد أطلعتنا على طائفة كثيرة من المصطلحات، وأن مزيدًا من البحث سينتج مصطلحات أخرى تصلح أن تكون مادة لدراسة أكاديمية مستقلة، أو مادة لمعجم اصطلاحي في هذا العلم يغني المكتبة العربية عمومًا ومكتبة الدراسات القرآنية خصوصًا.
- أن تتبّع أقوال القدماء وجهودهم في هذا العلم توفّر للدارسين مادة غنية جدًّا من حيث طرائق الحجاج والإقناع في بيان وجه المناسبة بين الآيات والسور.
- أن في علم التناسب مرانًا للعقل إذ يمنح القارئ نظرة شاملة للسورة القرآنية مهما طالت، ويمنحه قدرة على تفهم موضوعاتها واكتشاف طريقة الكتاب المحكم في الانتقال والربط بين هذه الموضوعات، صغيرة أو كبيرة، وهذا يفيد في توسيع الرؤية لكلام الله المعجز، كما يفيد في فهم مكنون الدعوة الإسلامية بهذا الكتاب العظيم.

---

85 نظم الدرر 1/301 ـ 302

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادي، صححه محمد شرف الدين وزميله، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د ت.
3. بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق حفني محمد شرف، ط1، 1957م، القاهرة، مكتبة نهضة مصر،.
4. البرهان في ترتيب سور القرآن، لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي، تحقيق محمد شعباني، 1990م، الرباط، وزارة الأوقاف المغربية،.
5. البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ، مطبعة دار التراث، د ت.
6. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، تحقيق محمد علي النجار،1964م، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
7. البلاغة في مناسبات سور القرآن الكريم وآياته لأحمد محمد نتوف، رسالة ماجستير، 1997م، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها،.
8. البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون،1997م، ط7، القاهرة، مكتبة الخانجي.
9. تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي، تحقيق عبد الله الدرويش،1983م، ط1، دمشق، دار الكتاب العربي.
10. في ظلال القرآن ، لسيد قطب،2003م، ط 2،القاهرة ، دار الشروق.
11. لسان العرب لابن منظور، تحقيق وترتيب علي شيري،1992م، ط2، بيروت، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي.
12. معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون،1979م، بيروت، دار الفكر.
13. المفتاح المقفل لفهم القرآن المنزل للحرالّي المراكشي، ضمن: تراث أبي الحسن الحرالّي المراكشي في التفسير، تصحيح محمد بن شريفة، 1997م، ط1،تطوان، المغرب.
14. النبأ العظيم، محمد عبد الله دِراز،1970م، ط2، الكويت، دار القلم.
15. نظم الدرر في تناسب الآي والسور، للبقاعي، تحقيق محمد عبد المجيد خان، من 1969 ـ 1984م، الهند، دائرة المعارف العثمانية،.
16. نقد الشعر لقدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى،1978م، ط3، القاهرة، مكتبة الخانجي.